فكرة التغيير السياسي عند أبي الحسن الندوي

الطالب: نورالدين ضيافي
جامعة باتنة1

ملخص

يعد أبو الحسن الندوي من أبرز المفكرين المسلمين الذي كان لهم صيت كبير في أواسط البلدان العربية والإسلامية والذين حملوا هم الأمة الإسلامية وحاولوا بكل ما أوتوا من عطاء علمي وفكري الذود عن شخصيتها والدفاع عنها وإصلاح أوضاعها ومعالجة الأزمات التي تراكمت عليها إلى أن أصبحت أمة فقيرة لا تحمل القوة الكافية إلى أن تحمل مسؤولية الوصايا على الأمم والدعوة العالمية إلى الله، ومن أبرز الإصلاحات التي ارتآها الندوي والتي أولاها اهتمام بليغ من جهوده الفكرية و الإصلاحية أزمة الحكم والسياسة.

كانت فكرة الندوي في تغيير الوضع السياسي المزري التركيز على تغيير ما بالأنفس قبل الوصول إلى الحكم أو المناداة بتغيير أوضاعه، تغيير النفس وإصلاحها إيمانيا وأخلاقيا وروحيا وانتهاج نهج دعوة الأنبياء وأخلاقهم ومحاكاة لنفسيات الصحابة العادلة السوية رضي الله عنهم زمن الخلافة الراشدة، أما نظرته اتجاه السياسيين والحكام والزعماء فنظرته يسيرة من دون ترتب عواقب على ذلك فهو يرى إيصال الإيمان والدعوة إليهم وبهذا نتجنب نفور السياسيين من الدين وتجنب الصدام والصراع.

الكلمات الدالة: أبو الحسن الندوي – التغيير السياسي –ـــ الفكرة الإصلاحية –ـــ الإيمان – الأخلاق –ـــ دعوة الأنبياء

Abstract

Abu Hassan Nadawi of the most prominent Muslim intellectuals who had a great reputation in the mid-Arab and Islamic countries and who have taken up their Islamic nation and tried with all their scientific tender and intellectual defendCharacter, defend and repair situations and dealing with crises which accumulated to become a poor nation do not carry the force sufficient to carry the responsibility of the commandments on the UN global call to God, and highlighted the reforms envisaged by Nadawi which first is an eloquent interesting intellectual and reform its crisis of governance and politics.

The idea Nadawi to change the political situation miserable focus on changing what souls before reaching the verdict or advocating change its settings, change the psychology and repair of faith and morally, spiritually and pursue the invitation of the prophets and morals and a simulation of the psyches of the companions just normal, God bless them caliphate time approach, but his view of the direction of politicians and rulers the leaders Venzerth easy without resulting consequences for that he sees the delivery of faith and call to them and thus avoid alienating politicians of the debt and avoid confrontation and conflict.

Key words:Abu Hassan Nadawi-Political change -The idea of reform-Faith-Moral-Call prophets.

مقدمة

إن من صفات الله عزّ وجل الحكمة، فهو العزيز الحكيم،لذا اقتضى وجود الخلائق كلها لمقصد عظيم وحكمة كبرى، وبهذا تنتفي صفة العبث عن الذات العلية فهو سبحانه المنزه عن كل عيب ونقص، وقد تعينت حقيقة الحكمة من وجود الخلائق والموجودات في التنزيل الحكيم وهي المتجلية في العبودية الكاملة والخضوع للإرادة الإلهية ويكون هذا بين أمرين الحب والخوف، وتزداد هذه العلاقة بين العابد والمعبود وبين المحب والمحبوب على قدر معرفة صفات كل المخلوق والمخلوق وحقيقة الحاجة إلى الخالق والى صفاته التي تفرد بها سبحانه.

اتصف سبحانه وتعالى بصفة الغنى عن كل الموجودات وكانت صفة الفقر جبلة في الخلائق، وقد جعل سبحانه وتعالى التفاوت بينهم في شتى المجالات سنة ثابتة وكذا سنة التخير بين الخلق وأمرنا سبحانه وتعالى بالتعاون في الخير لتحقيق

الوحدة وتدارك هذا التفاوت قال تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} (الزخرف32).

ومن التفاوت بين الخلق القدرة على تسيير أمور المسلمين وسياسة حياتهم بما فيه خير الدنيا والآخرة لذا اشترط في السياسة الشرعية تولية الخلافة للأولى ذا القدرة والأصلح بين المسلمين مع الصفات المؤهلة لهذا المنصب العظيم.

وقد اختل النظام السياسي واختلت الشروط وانقلبت الموازين وتغيرت حتى النيات والأغراض فحدث الفساد في المنظومة السياسية وترك شرع الله واستبدل بالقوانين الوضعية، وقد كان لهذا الفساد تاريخ طويل وأسباب تراكمت عبر زمن طويل مبدؤها استيلاء بني أمية الحكم دون الخلافة وإسقاطهم مبدأ الشورى.

رأى الكثير من المفكرين المسلمين في العصر الحديث ضرورة التغيير للنظام السياسي الحالي للفساد الكبير الذي حلّ به، وعلى هذا اختلفت الرؤى الإصلاحية بينهم ولعلى المنظومة الفكرية والبيئة التي أسهمت في تكوين شخصيتهم البصمة في هذه الرؤى والنظرات والأفكار الإصلاحية، ومن أبرز المفكرين الذين كانت لهم نظرة إصلاحية وفكرة التغيير للمنظومة السياسية أبو الحسن الندوي .

يسعى البحث إلى إبراز معالم النظرة الإصلاحية التي ارتآها الندوي في الجانب السياسي وعليه حاول البحث الإجابة على الإشكالية : فيما تمثلت نظرة أبي الحسن الندوي الإصلاحية السياسية؟ وما مدى أهمية هذه النظرة في الوقت الراهن؟

1-ـــ أبو الحسن الندوي:

هو السيد أبو الحسن علي بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني، ولد في شهر المحرم سنة 1332ه. بقرية (تكية) بمدينة (راي بريلي) التي تبعد عن (لكهنؤ) ثمانين كيلو مترا عن بلاد الهند[1].

ولد في بيت علم وترعرع في بيئة يغمرها العلماء والمربين الكبار، اشتهر بأول مقال علمي له نشره بمجلة المنار لمحمد رشيد رضا وهو لم يتجاوز السن الثانية عشر من عمره، وله الكثير من المؤلفات أشهرها "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" وكتاب "رجال الفكر والدعوة" في ثلاث أجزاء، وكانت له إسهامات كبيرة في مجال الأدب والدعوة وتميزت شخصيته بالعالمية لكثرة الرحلات في أواسط البلدان العربية والإسلامية والغربية.

وقد اتصف رحمه الله بسلامة فكره وعمق نظره وسعة علمه وبعده عن التشدد والتطرف ـــواختيار الوسطية، عاش لقضية الأمة الإسلامية ورسخ حياته خدمة لقضاياها والذود عنها ومحاولة إعادتها لمجدها الأول وكثيرا ما ناد بالمسؤولية العالمية في الدعوة إلى الله والوصايا على الأمم[2].

الرؤية الإصلاحية عند الندوي

يرى الندوي أن الجانب السياسي ليس هو الوضع الوحيد الذي يجب أن يطرأ عليه التحول والتغيير، بل الإصلاح والتغيير يجب أن يمسا الحياة بأكملها وفي شتى جوانبها. لأن العالم الإسلامي أزمته لا تقتصر على فساد النظام السياسي فقط، بل تطرقت إلى كل جوانب الحياة الأخلاقية والفكرية والعلمية والسلوكية والعقدية، وهذه الدعوة – دعوة التغيير– هي الدعوة الشاملة التي جاءت بها رسالة الأنبياء والمرسلين.

"ولكن لابد من تجديد واسع، ودعة صارخة وكفاح شديد يغير هذا الوضع الجاهلي الذي تورط فيه العالم الإسلامي تورطا قبيحا وأمعن فيه العالم العربي إلى أبعد حد،... وقد أصبح خطب العالم الإسلامي وفساد أحوال المسلمين وانحرافهم عن جادة الإسلام وطغيان بحر المادية أعظم وأوسع من أن يتدارك بجهود فردية وخطب منبرية ودروس دينية ومباحث

فقهية ومسائل جزئية ومحاربة الأفراد والأشخاص،إن السيل لا يمسكه إلا السيل مثله، والتيار لا يدفعه إلا تيار أقوى منه..."[3].

ويؤكد على شمولية التغيير والإصلاح لشتى الجوانب يقول:"وليس خطب الدعوة الدينية والتجديد الإسلامي بهين، فليس رسالتها ومهمتها قلب نظام أو تغيير وضع سياسي بوضع سياسي آخر ونظام اقتصادي بوضع اقتصادي آخر، ولا نشر الثقافة والعلم...وإنما هي دعوة السلام التي تشمل العقيدة والأخلاق والأعمال والعبادة

والسلوك الفردي والاجتماعي، وتتناول العقل والقلب والروح والجسم، وتعتمد على تغيير عميق في القلب والنفسية والعقيدة والعقلية وتنبع من القلب قبل أن تنبع من قلم أو صحيفة أو كتاب أو منصة خطاب وتنفذ على جسم الداعي وحياته قبل أن يطالب بتنفيذها على المجتمع والأمة"[4].

لذا أضحت المنظومة الأخلاقية لرجل السياسة والحكم أمر لابد منه في تكوين الشخصية السياسية النافعة لأن اتصال الأخلاق بالسياسة أمر ضروري، ولا يعني أنهما منفصلين "بحيث يعيش كل منهما بمعزل عن الآخر دون أن توجد بينهما صلات. بل الصحيح أن بينهما صلات وثيقة مردها إلى أنهما نشأ من مصدر واحد وهو العيش في الجماعة"[5].

ومن هذا يتبين من كلام الندوي أن دعوة الساعي للتغيير أن تكون دعوته شاملة للوضع دون الاقتصار على الجانب السياسي فقط، وأن تكون دعوته صادقة نابعة من القلب مترجمة إلى سلوك واقعي في حياته قبل أن ينادي بتطبيقها في واقع المجتمع، وعلى أساس محاكاة دعوة الراغبين في الإصلاح والتغيير لدعوة الأنبياء والمرسلين من أخلاق وصفاء النفوس وحب الخير للغير والصبر على عقبات ذلك تكون الثمرة في الواقع.

أما الأمر الآخر الذي يركز عليه الندوي في التغيير هو النجاح في "إنشاء الجيل الجديد أو الجيل المعاصر الذي لم يفقد صلاحيته ونموه – ليس بالأمر الهين إنها مهمة لتنوء بالعصبة أولي القوة، إنها تحتاج إلى تكريس الجهود وتركيز القوى على هذه الغاية والتفكير العميق الواسع والتعاون الشامل والتصميم الحكيم"[6] .

إن الجانب الجوهري الذي تميزت به رؤية الندوي الإصلاحية هو ضرورة التركيز على ثبوت صفة الإيمان والأخلاق التي يعتبرها هي الأزمة الحقيقية لا غيرها أو أنها هي الأزمات الأخرى إنما هي نتيجة ضياع هاتين الصفتين من الأمة كلها ليس فقط رجال الحكم والسياسة يقول:"تسمعون الناس يتحدثون عن الأزمات والمشاكل –ـــ وهذا العصر هو عصر الأزمات والمشاكل –ـــ يتحدثون عن أزمات اقتصادية، وأزمات سياسية ويتحدثون عن أزمات الحكم وأزمات الاجتماع، ولكني اعتقد أن هناك أزمة واحدة لا ثانية لها هي أزمة الإيمان ..أزمة الأخلاق، وهي مصيبة المصائب، وكل مشكلة تحدث الناس عنها واشتكوا منها ترجع إلى هذه الأزمة"[7] والأزمة ليس أزمة الحكومات والأحزاب إنما الشأن شان الإيمان والأخلاق لاعتباره إن أصحاب الحكومات والأحزاب إنما هم أفراد من المجتمع وقد طرأ عليهم ما طرأ على المجتمع من ضياع الإيمان والأخلاق، وقد أكد على ذلك بقوله:" إن الناس أشباه، و لم يزالوا، وأننا بشر والذين يحكموننا بشر ولكن الذي يسيطر على العالم هو هذه الأزمة الإيمانية الأخلاقية.إن كثيرا من الناس يعتقدون أن الشأن في الحكومات والأحزاب فإذا ذهبت وزارة وجاءت أخرى، وإذا ذهب حزب وجاء آخر فقد انحلت الأزمة وانقشعت المشكلة"[8]ويؤكد على خطأ هذا الرأي وقصر نظره. فعنده أن المسألة ليست مسألة أحزاب أو حكومات أو شيئا من التعديلات، إن المسألة مسألة العقلية والاعتقاد والنفوس والقلوب، فإذا لم يتغير الاعتقاد وإذا لم تتغير النفوس والقلوب فلا فائدة في هذه التغيرات، وان تبدل حزب بآخر، أو حكومة بأخرى لا يقدم ولا يؤخر أما الداء المترتب في ظل غياب تغير النفوس والقلوب إيمانيا وأخلاقيا فهو الخضوع للمادة والاستئثار وخدمة النفس، وهذه النفس قد تقصر فتصبح نفسا فردية وقد تتسع فتصبح نفسا حزبية

أو جماعية، إن هذه العقلية هي التي تسيطر على العالم كله وكل ما نعاني من فساد الأوضاع مرده إلى فساد هذه النفوس وهيمنة هذه العقلية الخاضعة للمادة، الخادمة للمصلحة، المستأثرة الأنانية"[9].

"فهذا هو الداء ... وكما جردتم النظر ونزلتم إلى أعماق الحقائق فإنكم ستجدون أن أصل البلاء هو شيء واحد (هو عبادة النفس) فإذا لم تتغير هذه النفوس المادة فلن تتغير هذه الأوضاع أبدا"[10]، وبفقدان الضمير الحي الذي يحمل الشعور بالمسؤولية وبعظم المكانة يصبح كل جهد للوصول والتنافس عليها "إنما هو تنافس على القيادة، كل أمة تريد أن تمتلك الحكم لتنفذ شهواتها، إنما التراع فيمن يكون صاحب الأمر والنهي وتكون له قوة إرضاء الشهوات وخدمة المصالح الذاتية والحزبية"[11].

وفي غياب التربية الإيمانية والروحية وانهيار صرح الأخلاق وطغيان الأنا وانفجار الطاقة الشهوانية الجامحة تكون عاملا من عوامل الأزمة الكبرى هي أزمة الانحطاط وهي من الأسباب التي تناولها في تأصيل أسباب الانحطاط في كتابه:(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ومن نتائج ذلك ضياع قيادة العالم الإسلامي للبشرية يقول:"ولكن من الأسف ومن سوء حظ العالم البشري أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يكونوا أكفاء، ولم يعدوا له عدة، ولم يأخذوا له أهبة، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية كما تلقى الأولون وكثيرون في عصرهم وجيلهم، ولم يسيغوا تعاليم الإسلام إساغة تليق بقيادة الأمة الإسلامية والاضطلاع بزعامتها، ولم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من بقايا التربية القديمة"[12].

ولما كانت الخلافة الراشدة أحسن من مثلت الحكومة المثالية والنظام السياسي الأمثل كان من الوجوب المستلزم على رجال السياسة والحكم انتهاج نهج أولئك الأفذاذ من القدوات التي ندرت فيما أتى بعدها – إلا خلافة عمر بن عبد العزيز فإنها حاكت نهجهم وشابهتها كثيرا – "ذلك لأنهم أقاموا حكومة عادلة تساوي بين رعيتها وتأخذ للضعيف من القوي، وتحرس للناس أخلاقهم كما تحرس لهم بيوتهم وأموالهم، وتحفظ عليهم دماءهم وأعراضهم، خيارهم أمراءهم، وأزهدهم في العيش أملكهم لأسبابه وأقدرهم عليه"[13]، ولعلى من الأسباب التي خلدت هذه الحكومة المثالية العادلة في تاريخ البشرية جمعاء اتصافهم"أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية، فلا يقننون ولا يشرعون من عند أنفسهم، لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم، ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم خبط عشواء..وأنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر..، فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب تهافت الفراش على الضوء بل كانوا يتدافعون في قبولها بل كانوا يتدافعون في قبولها ويتحرجون من تقلدها فضلا أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ويزكوا أنفسهم وينشروا دعاية لها وينفقوا الأموال سعيا وراءها"[14].

وبهذا الأنموذج الفريد في مدار التاريخ كله قامت الحضارة الإسلامية وكانت في أرقى المقامات ذلك لأن الذوات كانت سليمة سواء من قبل الحاكم أو المحكوم وهذا ما ولّد علاقة اجتماعية متينة سليمة، "فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات.."[15].

إن المتأمل في عهد الخلافة الراشدة لا يجد للأنا واقع وأثر "وبوسعنا أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث في مجتمع مريض لو أن خليفة من طراز عمر بن الخطاب أراد أن يعزل رجلا كخالد بن الوليد من قيادة جيش الشام، إن محاولة كهذه كفيلة بزلزلة العالم الإسلامي أو أنها حدثت بعد ذلك بقرنين أو ثلاث قرون فحسب ولكن (الأنا)الإسلامية كانت في العهد

الأول سليمة سوية فكان (فعل) عمر دون عقدة، وكان (فعل) خالد دون عقدة أيضا، لأن علاقاتهما كانت علاقة سوية مترهة"[16].

ولما بعد الاحتذاء وراء هؤلاء المصابيح غرقت الرؤى السياسية والأغراض للحكم ووقعت في ظلمات الأنا والذاتية واقتصار المنفعة وانحصارها في الفرد والشخصية أو الجماعة والحزب وبهذا تغيرت المفاهيم "وأصبح المسلمون أخيرا بجهلهم للدين وما يقتضي من حب وبغض وبتأثير الدعاية، يرون إلى الجاهلية الأوربية كالحليف الوحيد للإسلام، وأنهم يقرعون بين أممها أيها أقرب إليهم، وأنفع لمصالحهم وأغراضهم السياسية والمالية ويجهلون أنها مهما اختلفت في نظمها السياسية وفي إدارتها الداخلية، أو سياستها الخارجية، ومهما تعادت وتباغضت فيما بينها ... يسميها الإسلام الجاهلية"[17].

هذه الجاهلية التي ورثت النظرة المادية و"أصبح المسلمون لا يعنيهم أمر الدين والأخلاق، ولا يهمهم مصير الإنسانية ومستقبل العالم، ولا تهمهم إلا المصالح السياسية والفوائد المادية الحاضرة التي تعود على بلادهم أو شعبهم، وبالأصح على أشخاصهم وحبلهم على غاربهم وأمرهم بيدهم، ولكن ليعلموا أخيرا أن سفينة الجاهلية التي اختاروها لسفرهم قد أحيط بها. وأن ألواحها قد تآكلت ونخرت منذ زمن"[18].

الدول والحكومات بين الجباية والهداية

من خلال ما تم ذكره من آراء الندوي وتفريقه بين الحكومة المثالية التي مثلتها الخلافة الراشدة التي قامت على أساس الزهد والتقوى والورع والغاية الكبرى وهي هداية الأمم وإقامة العدل والحكومة الأخرى التي هي نقيض سابقتها التي قامت على ضياع الإيمان وتحول الأخلاق وغلبة الشهوات وطغيان الأنا والذاتية، قسم الندوي الدول والحكومات إلى قسمان:

1-ـــ دولة شعارها الجباية :

فميزان الأشياء ومناط الأحكام في دولة الجباية هو تضخم الميزانية وكثرة الدخل والإيرادات، ورفاهية رجال الحكومة واحتفال الحضارة وزهو المدنية، وان كان ذلك بامتصاص دماء الفقراء وشقاء الفلاحين والعملة. والضرائب المجحفة والمكوس المرهقة. فلا يغني هذا الضرب من الحكومة إلا بما يزيد في مواردها وماليتها، وبما يهيئ لها أسباب الفخار والزينة والأبهة، بما يهيئ للأمراء والوزراء وأبناءهم وأبناء أبناءهم، والمتصلين بهم ورجال الحكومة وأسرهم وخدمهم أسباب الترف والتنعم والبذخ، بما يبنون به قصورا فاخرة، ويشترون به أملاكا واسعة، في داخل البلاد وخارجها"[19].

"هذا هو هدفها وغايتها همها عبادة المادة وخدمة النفس والذات على حساب أمة بأكملها، أما ما تهمله أو تغفله وتصرف النظر عنه وقد لا تعترف أنه السبب الحقيقي لثبات واستقرار الأمة والحفاظ على شبكة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع فهو "تربية الجمهور الدينية والخلقية. وتعطل الحسبة والرقابة على الأخلاق والنزعات، وتتغافل عن كل ما ليس بسبيلها وما لا يجر عليها فائدة أو قوة سياسية، وقد تبيح منكرا أو محرما إذا كانت تجني منه نفعا، وتحرم مباحا إذا كانت تخاف منه خطرا سياسيا أو خسارة مالية، ولا يزال الجشع والنهامة للمال تدفعها وتزين لها خطتها، حتى تفرض ضرائب على العبادات وعلى الموت والحياة، وهكذا تتحول من حكومة ساهرة عن مصالح الجمهور وراحتهم ومن مربية وحارسة للأمة، إلى شركة تجارية كبيرة لا يهمها إلا جمع الأموال وزيادة الأرباح"[20].

- دولة شعارها الهداية2

"أما الدولة التي شعارها الهداية فمهمتها الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومعيارها تحسين أخلاق الجمهور، وسمو روحهم وتحليهم بالفضائل وإقبالهم على الآخرة، وزهدهم في الدنيا والقناعة في المعيشة، واجتنابهم المحرمات والمعاصي، وتنافسهم في الخيرات، ولو كان ذلك على حساب ميزانيتها وخسارة ماليتها، فتنصب الوعاظ،

وترسل الدعاة، وتشجع الحسبة، وتمنع الخمور وتنكر على الفجور، وتحرم الملاهي والمعازف، وتطارد المستهترين والخلعاء وتمنع كل ما يفسد على الناس عقيدتهم وأخلاقهم. ويفسد الحياة المترلية، وتغص في حكمها المساجد، وتفقر الحانات ويزدهر الدين والتقوى، وتضمحل المعاصي والجنايات، ويقوم أهل الدين والصلاح وينشطون ويتحمسون، ويتوارى الفجار والملحدون وينكمشون ويكون ماوصفه الله تعالى: { الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} (الحج41)"[21].

"يمتاز جهاز حكومة الهداية بأسره عن جهاز حكومة الجباية بأسره، يمتاز عنه في النزعات والروح، والسيرة والمعاملة والسلوك، فنرى في الأول التطوع، والاحتساب، وروح الخدمة والإيثار، والأمانة والتضحية والوفاء، بينما نرى في رجال حكومة الجباية معاكسة القانون ورجاله والاجتهاد في معاجزته والتفلت منه، والكبر والتجبر، والأثرة والخيانة، والنفاق والزور، وفشو الرشوة إلى حد يدعو الإنسان بين الركن والمقام أن لا يبتلى منهم، فلا ينال الإنسان حقه من العدل والراحة، ولا يتمتع بحقوقه المدنية إلا إذا رضح من ماله لهذا وقدم طعمة لذاك، ويستفحل الأمر ويجل الخطب، حتى لا يرى أحد في هذه الحكومة أنه خادم أمة وأمين حكومة، لا يعد نفسه إلا جابيا ـــ ولكن لنفسه وعياله ـــ قد منحته الحكومة فرصة جمع الأموال، فلا يريد أن تفلته هذه الفرصة ويتخلف عن قافلة الجباة الشخصيين، وقد اشتد بها الجد، وجدّ بها السير"[22].

وعلى هذا يرى الندوي أنه لابد من انقلاب كبير وفق منهج دعوة الأنبياء وخصائصها وفي ذلك يقول:"درست أحوال البلاد العربية عن كثب، وعرفت ما هنالك في العالم العربي من تفسخ في الأخلاق واستبداد في الحكومات وتحزب في السياسة، وانصراف بالكلية عن الدين. وعبادة المادة، وضياع الشعوب العربية بين حكومات مستبدة ورجال يعبثون بأموال الدولة والأمة.. وأحزاب سياسية تتلهى بالشعب، وتسخر منه وتضرب بعضه ببعض لمصلحتها وسياستها وبرجال لم تنشرح صدورهم للإسلام، ولكنهم يصرون على أن يحكموا شعبا يؤمن بهذا الدين، وعرفت أنه لا يغير هذا الوضع ، ولا ينقذ العالم العربي من الانهيار الذي يتهدده إلا حركة شعبية قوية أساسها الإيمان والتقوى والجهاد ولإعلاء كلمة الله، ومن أهدافها تطهير المجتمع من الأدواء الخلقية والاجتماعية وتطبيق نظام الحياة الإسلامي في الأقطار الإسلامية"[23]، وبهذا يركز الندوي على ضرورة وجود صفات بإمكانها إن تحدث تغييرا وإصلاحا في المجتمع وفي المنظومة السياسية على وجه الخصوص وأساس هذا التغيير هو الأخلاق والإيمان والتربية الدينية وتوفر صفتي الحكمة والمنفعة فيذوي السياسة والحكم.

إن من بين القضايا التي تناولها الندوي بالحديث والتركيز عليها هي الأخرى ورأى أنها من ضرورات الواقع وخاصة في العمل السياسي هي الوعي السياسي يقول:"إنني لم أكن في فترة من حياتي ممن يقول بفصل الدين عن السياسة وممن يفسر الدين تفسيرا لا يتصادم مع وضع – مهما انحرف وشذ عن الإسلام – وينسجم مع كل مجتمع ولا ممن يعتبر السياسة الشجرة الملعونة في القرآن، بل أنا في مقدمة من يدعو إلى إيجاد الوعي السياسي الصحيح في الشعوب الإسلامية وإيجاد القيادة الصالحة، وممن يعتقد أن المجتمع الديني لايقوم إلا بالملك الديني الصحيح والحكم الصالح المؤسس على أسس الإسلام، ولا أزال أدعو إلى ذلك حتى ألقى الله، إنما المسألة مسألة تقديم وتأخير، وما تقتضيه حكمة الدين وفقهه وما تفرضه الأوضاع"[24].

الفكرة الإصلاحية في المجال السياسي عند الندوي

يرى الندوي وكثير من المفكرين المسلمين بل وحتى الكثير من المسلمين بضرورة إيجاد الحل الإسلامي، وكثيرا ما نادت به الخطابات والكتابات والشعارات "والحل الإسلامي معناه أن يعود الدين الإسلامي هو مركز التوجيه في الدولة الإسلامية، وأن ينتهي في حياة المسلمين هذا الانفصام القائم بين الدين والدولة"[25].

بل وأصبح تأصيل عميق لأنظمة الحكم وتكييفها في ضوء مصادر التشريع مع مراعاة المصلحة ومقاصد الشريعة خدمة لحفظ الضروريات الخمس ضمانا للحياة وتوفيرا للبيئة التي يمكن فيها تحقيق العبودية الكاملة لله، كما من شأنها أن تكوّن الوحدة بين أفراد الأمة والقضاء على الفجوات العميقة بين الأفراد والجماعات وضمان الاستقرار وأمن البلاد والقضاء كذلك على النزاعات والخلافات التي من شأنها إحداث زلزلة البلدان الإسلامية والعربية على وجه الخصوص، وكل هذه الرزايا من صنيع الأنظمة الوضعية الغربية التي تنافي روح الأمة الإسلامية وتحدث اضطرابا وفوضى حينما فعلت في أواسط المجتمعات ومست بالمنظومة السياسية، لذا أصبح الحل الإسلامي ضرورة لرفع كل هذه الأوضاع المزرية، والحل الإسلامي إنما هو الذي يسعى وراء "التكامل في قواعد الدين الإسلامي، فإنه يأبى الفصل ما هو دين ودنيا، فالدين والدنيا أمران مختلطان تماما، اختلاط العقيدة بالعمل، والإيمان بالعمل الصالح، الذي ما يذكر في القرآن إلا وذكر الآخر معه"[26].

نادى الندوي بضرورة وجود الوعي السياسي لدى الأمة الإسلامية دون أن تركز كل الجهود عليه حتى ينحصر الإسلام وكل ما يحمله من معاني أوسع للحياة في الجانب السياسي، وقد انتقد هذا الرأي ورده على من رآه وجاء هذا الأمر تفصيلا في كتابه:"التفسير السياسي الإسلامي في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب" يقول:"إنه لا ينبغي أن يكون تفسير الإسلام خاضعا لمصطلحات سياسية، ولأهداف سياسية فقط، لأنه كتاب محكم، خالد، عام للبشرية، والأساس فيه إرضاء الله تبارك وتعالى، وتنفيذ أحكامه والعمل بها والعمل بأحكام رسوله صلى الله عليه وسلم ويأتي في نتيجة ذلك الحكم والقوة السياسية، فليس الحكم والقوة السياسية هو الهدف الأول و الأساس، بل الهدف الأول والأساس هو طاعة الله تبارك وتعالى وطاعة رسوله"[27].

محاسبة القادة والزعماء عند الندوي

يرى الندوي أن مسألة محاسبة القادة والزعماء أمر لابد منه ولا يمن الاستغناء عنه، وهذا لا يعني أن الندوي من دعاة الفتن ونشر الفوضى بل هو أبعد الناس عن ذلك وقد عرف بلينه ووسطيته في النقد والمحاسبة والنصح لكثير من الحكام الذين راسلهم داخل الهند وخارجها من الحكام العرب والمسلمين، ويرى أن عدم محاسبتهم والطاعة العمياء لهم هو السبب الذي يؤدي بنا إلى التدهور يقول:"لا يجوز أن نؤمن بقيادة إيمانا كاملا مطلقا. كإيماننا بالله وكإيماننا بالرسول، يجب علينا أن نحاسب القادة والزعماء، يجب علينا أن نحاسب أنفسنا، وأن نحاسب أوضاعنا الاجتماعية، وأوضاعنا الخلقية، وأوضاعنا السياسية، أما الطاعة العمياء لفرد أو جماعة، تقودنا إلى متاهة لا رجعة منها، ولا هدى فيها، وتدفعنا إلى هوة لا قرار لها"[28].

وأن ما ذهب إليه الندوي إنما أصله مستمد من واقع في صدر الإسلام، "إذا كانت عجوز تستطيع أن تحاسب عمر بن الخطاب، فلماذا لا يجوز لأي مسلم ولأي كاتب ومؤرخ، ولأي متألم لهذه الأوضاع أن يحاسب القادة والزعماء، وكان كل مسلم أن يستطيع أن يحاسب عمر بن الخطاب، فقال مرة وهو على منبر الرسول: اسمعوا وأطيعوا، فقال أحد الصحابة: لا نسمع ولا نطيع، قال : لما؟ قالوا: لأن عليك بردتين من الغنيمة، وعلى كل واحد منا بردة واحدة، فلماذا هذا الفرق بيننا وبينك؟ فقال: هل هنا عبد الله بن عمر؟ فقام وقال: إنه كانت له بردة واحدة، فأعطيته بردتي، فقال

الأول: إذن نسمع ونطيع. وهكذا عاشت الأمة، وقاومت جميع النكبات والكوارث التي مرت في تاريخها، لأنها كانت أمة واعية، وتقول الحق، وتحكم بالعدل، وتحاسب وتناقش، وهكذا تستطيع هذه الأمة أن تعيش في المستقبل"[29].

وبهذا الحساب والنقاش بين الأمة بأكملها من حكام ومحكومين ينشأ الوعي السياسي بمصلحة العامة وبمصلحة البلاد، ويرى الندوي أن هذا الوعي غائب ومفقود بين الأمة في حين الدول الغربية متوفر لديها وقائم ،فإنها تفضل مصلحة البلاد كلها، فإذا ما رأت انحراف أو عمل يهدد مصلحة البلاد فإنها تقوم بعزله وانتخاب من تراه مناسب لذلك. وهذا من أهم الأسباب الذي ضمن بقاءها واستمرارية وجودها.

فكرة التغييرعند الندوي

للتغيير عند الندوي طريقان[30]:

1- أحدهما أن يصل الإيمان إلى أصحاب الكراسي، فيقبلوا الدعوة ويتحملوا مسؤولية نشرها ويتحمسوا لتنفيذها وتطبيقها ويساعدهم رجال الدين على ذلك وينصرونهم ويدعون لهم ويشجعونهم على تبنيهم هذه الفكرة.

2- أن يصل أهل الإيمان إلى تلك الكراسي ويستولوا على مقاليد الحكم.

يختار الندوي الطريق الأول ويؤكد على سلامة نتائجه يقول:"إن الطريق الأول ناجح، ويأتي بنتائج إيجابية، والطريق الثاني(أي محاولة الاستيلاء على كرسي الحكم مباشرة) يثير المشاكل، ويزرع العداوة، ويحمل على محاربة ليس رجال الدين وحدهم، بل على محاربة الدين نفسه، والتخوف منه، بل كراهيته والنفور منه، ويأتي هذا الطريق بنتائج معكوسة"[31]، وفي غير موضع يكرر هذا المعنى "اعترافا بالحق، وإظهارا للواقع، واقتضاء للدقة والأمانة التي ينبغي للمؤرخ أن يراعيها، أجد نفسي مرغما على أن أعبر عن اعترافي بهذه الحقيقة. أن من الأسباب والعناصر التي ساعدت على تغير هذا الوضع وشعور رجال الحكم وواضعي القانون بالتخوف من الحركات الدينية والدعاة إلى النهضة الإسلامية هي تجربتهم بأن كثيرا من الحركات الدينية التي قامت لإصلاح العقائد والأعمال، والقضاء على الخرافات والأباطيل والدعوة إلى الرجوع إلى الله والإبانة إليه، والتمسك بالشريعة وتطبيقها في الحياة العامة سرعان ما تتحول إلى أحزاب سياسية، وتتدخل في الأمور السياسية والإدارية للبلاد وتحاول الحصول على السلطة والوصول إلى مناصب النفوذ واستلام زمام الأمور في البلاد فيبدأ صدام بينها وبين الطبقة الحاكمة، ويتعامل معها معاملة الأحزاب المعارضة"[32].

ولحدوث مثل هذه الأزمات داخل المجتمع الإسلامي اختار الندوي الطريق الأول وهو إيصال الإيمان إلى الطبقة الحاكمة وإنشاء الثقة بصلاحية الإسلام وشرعه وجوب ذلك ضمانا لنجاح الحياة الإسلامية واستقرارها وقد كانت هذه الفكرة التي تبناها الندوي هي نفسها فكرة الإمام السرهندي التي تجلت في سيرته الإصلاحية مع الملوك والخلفاء والتي حققت نجاحا كبيرا مع سلامة العاقبة ومن دون أي صدام أو عراك أو حدوث فتن وفوضى.

وقد اعترض على الندوي في هذه الفكرة في ضمان وجود شخصية مثل شخصية الإمام السرهندي فهي من النوادر التي لا تتجدد، ولا يجب أن يلام الندوي على الفكرة ـــ فكرة الطريق الأول ـــ لأنه يجب مراعاة البيئة والمكان الذي نشأت فيه شخصية الندوي لأن لذلك الأثر في تكوين الرؤى والنظرات وتركيبة الأفكار، فقد كان يعيش ضمن أقلية مسلمة في بلاد الهند الذي تسوده الغالبة من غير المسلمين كما سادت فيها كثرة الطوائف والأحزاب والصراعات العرقية والجنسية.

وقد كانت لفكرة الإمام السرهندي تأثير في عمل الندوي الإصلاحي وخاصة في الحفاظ على الأقلية والمسلمة وأمر دينها وأبرز ما تجلت هته الفكرة في "رسالة الإنسانية" الذي يعد مجموعة الأنظمة والقوانين العامة التي تضمن استقرار الهند والحفاظ على الرابطة الاجتماعية بين المسلمين وغيرهم.

وقد يكون لفكر الشيخ محمد إلياس هو الآخر إسهام في تولد هذه الفكر الإصلاحية لدى الندوي، لأن شخصيته كانت من أبرز الشخصيات المؤثرة في نفسية الندوي وخاصة في منهج الدعوي وروحه الجياشة التي تحمل الهم الكبير على أوضاع المسلمين وحالهم المزرية، فقد كانت أساس دعوته التركيز على الجانب الروحي والإيماني والأخلاقي وإقامة الدعوة وحركتها على المنهج الأول زمن البعثة وصدر الإسلام فكثيرا ما تشبه دعوته وحركتها الدعوة المكية، ومن الأصول التي ركّز عليها محمد إلياس تجنب السياسة والخوض فيها وحتى الحديث عنها، ويركز على ضرورة تحصيل الإيمان والأخلاق ودعوة الناس إلى ذلك، وعلى هذا الديدن سار أتباعه.

" ومن خلال هذا كان تركيز الشيخ على تزكية الأنفس، وإصلاح القلوب فهي التغيير الحقيقي وأساس الإصلاح الكامل، ولا يجدي تغيير الأنظمة والقوانين والأوضاع السياسية والدستورية، ما لم يسبقها أو يصحبها تغيير نفسي وروحي عميق يغيّر ما بأنفس الأقوام حتى يغير الله ما بها، وفقا للسنة الثابتة التي قررها القرآن: {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} (الرعد:11)"[33].

خاتمة

بعد هذا العرض لفكرة الندوي في التغيير في المجال السياسي تبينت مجموعة نتائج منها:

-ـــــ دعوة الندوي في التغيير تعتمد على الجانب الروحي و الإيماني والأخلاقي

-- يختار الندوي طريقة إيصال الإيمان والدعوة إلى الحكام وإعانتهم علة نشر هذه الدعوة، ويجتنب الطريق الثاني في منافسة رجال الحكم ومحاولة امتلاك زمام الحكم للآثار الوخيمة التي تترتب عليها الصراعات الناشبة عن ذلك.

-ـــ يختار الندوي في الإصلاح السياسي الطريق السهل التي لا تحدث الفوضى والفتنة داخل المجتمعات

-ـــ يرى الندوي ضرورة إقامة محاسبة الحكام في إطار تبادل المنفعة وخدمة المصلحة العامة من دون صدام

-ـــ يركز الندوي على مجموعة صفات تؤهل المصلحين ودعاة التغيير والنهضة ليضمنوا النجاح وأكّد على ضرورة قيام دعوة على منهج الأنبياء والمرسلين لأن من شأنها إحداث انقلاب للأوضاع التي فشا فيها الفساد.

-ـــ فكرة التغيير عند الندوي كانت مستلهمة من السيرة الإصلاحية للإمام السرهندي ـــ

المصادر والمراجع

[1]- يوسف القرضاوي: الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته.دار القلم ـــ دمشق. الطبعة الأولى1466 ه 2001م.ص31

[2]- يوسف القرضاوي: الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته.و محمد أكرم الندوي: أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم.

[3]- أبو الحسن الندوي: الإسلام والحكم.المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة - الطبعة الأولى 1398ه.1978م.ص11.

[4]- المصدر نفسه، ص12

[5]- أبو المعاطي أبو الفتاح: حتمية الحل الإسلامي - تأملات في النظام السياسي - مطبعة الجبلاوي.1977م. (د- ط) .ص93

[6]- الندوي: الإسلام والحكم، ص28

[7]- أبو الحسن الندوي: أزمة إيمان وأخلاق ـــــ مجلة البعث.الطبعة الأولى1376ه.1957م. لكهنؤ- الهند.ص2

[8]- المصدر نفسه،ص3

[9]- المصدر نفسه،ص3.

[10]- المصدر نفسه،ص3.

[11]- المصدر نفسه،ص4.

[12]- أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. مكتبة الايمان. المنصورة القاهرة (دط.دت) ص121.122

[13]- المصدر نفسه،ص13

[14]- المصدر نفسه ،ص105.106

[15]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ـــــ شبكة العلاقات الاجتماعية ـــــ ترجمة: عبد الصبور شاهين.دار الفكر ـــــ دمشق. سورية ـــــ الطبعة الثالثة1406ه. 1986م.ص41

[16]- المصدر نفسه، ص42.

[17]- أبو الحسن الندوي: إلى الإسلام من جديد.دار القلم . دمشق 1387ه - 1967م.ص136

[18]- المصدر نفسه، ص140

[19]- ـــ المصدر نفسه،ص 108

[20]- المصدر نفسه ،ص108

[21]- المصدر نفسه ،ص109

[22]- المصدر نفسه، ص109

[23]- أبو الحسن الندوي: مذكرات سائح في الشرق العربي - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثالثة1398ه.1978م.ص25.26

[24]- الندوي: إلى الإسلام من جديد، ص 187

[25]- أبو المعاطي أبو الفتاح: حتمية الحل الإسلامي، ص3

[26]- المصدر نفسه ،ص7

[27]- أبو الحسن الندوي: نصائح وتوجيهات للشباب المسلم.دار ابن كثير. دمشق.بيروت. الطبعة الأولى 1460ه.1990م.ص64

[28]- أبو الحسن الندوي: تعالوا نحاسب أنفسنا وقادتنا. دار عرفات للدراسة والترجمة والنشر - رائي بريلي.الهند(د - ط.د -).ص18.

[29]- المصدر نفسه، ص25

[30]- أبو الحسن الندوي: في مسيرة الحياة . دار القلم. دمشق. الطبعة الأولى.ج3 .1418ه. 1998م.ص299

[31]- المصدر نفسه، ص299

[32]- المصدر نفسه، ص298 .299.

[33]- يوسف القرضاوي: الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ،ص114.115